منهج البحث اللغوي في كتاب سيبويه

م.د.عادل هادي العبيدي/رئيس قسم اللغة العربية
كلية الآداب/جامعة الأنبار

مما لا شك فيه أنّ سيبويه لم يترك للمكتبة العربية غير مصنّفٍ واحد جمع بين دفّتيه كلام العرب ، فكان النحو والصرف هو المؤلَّف هو الذي اشتُهِر باسم (الكتاب) ونال من الانتشار والشهرةَ ، مكانة لم ينلها مصنَّفُ آخرُ ، لتفرده بما حوى ، وتميّزه عن غيره بما في موضوعه ، حتى أسماه الناس (قرآن النحو) .

اهتم القدماء والمحدثون بالكتاب ودرسوه وناقشوه ، وذكروا آراءهم فيه وبيّنوا قيمته وأثره ، ولم يحظَ أيُّ كتاب قبله ولا بعده بمثل ما حظي به كتاب سيبويه من اهتمام الدارسين والمعنيين والمتتبعين على اختلاف اتجاهاتهم وعصورهم إذ لم يمرّ عصر منذ ظهوره إلا ونجد من دَرَسَهُ ، أو كتب عنه أو شرحه أو شرح شواهده ، وبيّن قيمته وعلّق عليه .

فهذا الجاحظ وهو مَن هو في كثرة تصانيفه وجودة مؤلفاته وفي عقليته الجبارة التي ما نزال نعجب بها ، يقول عن كتاب سيبويه : ((لم يكتب الناس كتاباً مثله ، وجميع ما كتبَ الناس عليه عيال))[1] .

نعم لقد كان الكتاب أعظم عمل في النحو والصرف وغيرها من الدراسات المتناثرة في تضاعيفه ، وما يزال محتفظاً بقيمته كما كان منذ قرون .

لقد كتب الناس في العربية كتابات كثيرة وبحثوا فيها ولكنه لم يصل إلينا شيء من ذلك حتى جاء سيبويه ، فجمع ما درسه وما رواه عن أساتذته ، ولا سيّما الخليل بن أحمد الفراهيدي (١٧٥ هـ) وقدّمه للناس بعد أن أثبتّه بالأدلة ، ورتبه الترتيب الذي رآه موفياً بالغرض الذي قصد إليه ، ومثل له من القرآن الكريم ، والشعر العربي الفصيح ، وكلام العرب المشهورين بالفصاحة والبلاغة .

لقد صنع سيبويه للنحو ما لم يصنعه أحد ، حتى ليُعد بحق أستاذه الأول وإمامه المقدّم ، ويعد كتابه معيار العربية وليس أدلّ على ذلك من كثرة مَنْ تناوله من أئمة اللغة وأعلام العربية بالبحث والدرس والنقد والتأليف فهو كنزٌ من كنوز العربية ، وليس لنحوي قديمٍ أو حديث كتابٌ يجاري كتاب سيبويه أو يُدانيه ، كما شهد بذلك القدماء من بصريين وكوفيين وبغداديين وأندلسيين [2].

وما يزال الكتاب جديداً على الرغم مما أُلّفَ بعده من كتب وأسفار وما يزال منبعاً صافياً لمن يريد دراسة النحو والصرف والأصوات وأصولها وغيرها من العلوم العربية .

وقد كان القدماء يُعظّمونَه ويُكبرونَه ويُظهرونَ تَهيّبَهم منه فهذا الجاحظ عندما أراد الخروج إلى محمد بن عبد الملك الزيّات ، فكّرَ في شيءٍ يُهديه له ، فلم يجد أشرف من كتاب سيبويه ، فلمّا وصل إليه ، قال له : لم أجد شيئاً أُهديه لك مثل هذا الكتاب وقد اشتريته من ميراث الفرّاء . فقال له ابنُ الزيّات : أو ظننتَ أنَّ خزانتنا خاليةٌ من هذا الكتاب ؟ فقال الجاحظ : ما ظننتُ ذلك ، ولكنّه بخط الفرّاء ومقابلة الكسائي ، وتهذيب عمرو بن بحر الجاحظ. فقال ابنُ الزيّات : هذه أجلُّ نسخةٍ توجدُ وأغرّها فأحضرها إليه ، فسُرَّ بها ، ووقعت منه أجمل موقع[٣] .

وهذه الرواية إنْ دلت على شيءٍ إنّما تدل على قيمة الكتاب وعظمته بحيث استحق أن يكون هدية لوزيرٍ أديب مثل ابن الزيّات ، وتدل على أنّ الكتابَ كان شائعاً وكان الناس يقتنونه ، للانتفاع به ، وليطرزوا به مكتباتهم حتى لا تكاد تخلو مكتبة أحد الأدباءِ أو الوزراءِ من نسخة منه .

❖ أقوال العلماء في الكتاب :

كان الكتاب إماماً لكل من كتب في صناعة النحو والصرف والعربية عامة ، فقد هذّبها وكمّل أبوابها وتفاريعها واستكمل من أدلتها وشواهدها[٤] .

وقد أفاض العلماء بالثناء والحمد والإجلال للكتاب لما له من قيمة كبيرة ومتفردة لا نظير لها بين المؤلفات الأخرى فقد عدّه السكاكي كتاباً لا نظير له في فنّه ، ولا غنى لامرئ في أنواع العلوم عنه ، ولا سيّما في الإسلامية ، فإنه فيها أساس وأيّ أساس[٥] .

وعدّه ابنُ حمزة الأصبهاني : زينة لدولة الإسلام[٦] .

وهذا دليل على أنّ الكتاب لا يبحث في النحو والصرف فقط بل يبحث في مختلف فروع العربية ، ويتعرض لكثير من المسائل الدينية والدراسات القرآنية ، فهو كالبحر في تعدّد ما يحتويه من أصناف العلوم والفنون لذلك كان القدماء يسمونه ((البحر)) أو ((البحر الخضمّ)) تشبيها له بالبحر لكثرة جواهره ولصعوبة مضايقه وكان المبرِّد إذا أراد أحد أن يقرأه عليه يقول : ((هل ركبت البحر ؟)) [٧].

ولشدة اعتزاز المبرّد بالكتاب كان يقول : ((لم يعمل كتاب في علم من العلوم مثله)) .

وكان أبو عثمان المازني يقول : ((مَن أراد أن يعمل كتاباً كبيراً في النحو وبعد كتاب سيبويه فليستحي)) وقيل : بل قال : ((فليستنجد به))[٨] .

ومن العلماء الذين أفادوا من كتاب سيبويه ، الفرّاء ، وهو المتتبع لهفوات سيبويه ، والكثير المخالفة له ، الزائد العصبية عليه ، لقد كان لا يستغني عن كتاب سيبويه وإنما كان يقرأه خلسة ومات وتحت وسادته الكتاب [٩].

وهذا الكسائي – مع خصومته لسيبويه – يقرأ على أبي الحسن سعيد بن مسعدة الأخفش كتاب سيبويه ، ويدفع له مائة دينار .

ولما كان الكتاب موضوعاً لكل عصر ، وليس مقصوراً على دارس دون آخر نجد المحدثين قد اعتنوا بدراسته وقدّروه حقّ قدره ، ولم يكن تقديرهم له أو رأيهم فيه بأقل من رأي القدماء ، فالجميع رأوا الحقَّ واتبعوه وعبّروا عن إعجابهم وتعظيمهم للكتاب ولمؤلفه .

يقول الأستاذ أحمد أمين في معرض حديثه عن نشأة النحو : ((وتاريخ النحو غامض في منشئه كلّ الغموض ، فإنّا نرى كتاباً ضخماً ناضجاً هو كتاب سيبويه))[١٠] .

وهذا المستشرق الألماني بروكلمان يقول عن سيبويه وكتابه :

((وكان سيبويه الفارسي أشهر تلاميذ الخليل ، ومصنّف أول كتاب جمع ما ابتكره الخليل إلى محصول الباحثين السابقين)) .

وقال في موضع آخر : ((أمّا كتاب سيبويه فهو أقدم مصنّف جمع مسائل النحو العربي كافة))[١١] .

❖ **متى أَلّف سيبويه كتابه ؟[١٢]:**

لا نعرف على وجه الدّقة متى بدأ سيبويه يصنف كتابه ، ولا متى فرغ منه ، ولكن الظاهر أنّه ألّفه على مرحلتين ، بعضه في حياة الخليل ، ولكنّه لم يتمّه إلا بعد وفاته بدليل تعقيبه على بعض المواضع منه بقوله (رحمه الله) .

ولمّا كان الكتاب لم يظهر ولم ينتشر أمره إلا بعد وفاة سيبويه حيث إنّه لم يقرأه على أحد ولا قرأه أحدٌ عليه ولمّا كان بين وفاته ووفاة الخليل عشرون عاماً تقريباً ، فقد توفي الخليل سنة ١٧٠هـ وتوفي سيبويه سنة ١٨٠ هـ ، فمن المعقول أنّ سيبويه قد ألّف قسماً منه في حياة الخليل ، وألف القسم الباقي وأتمّ الكتاب بعد وفاته خلال هذه الأعوام العشرين .

❖ **موضوعاته :**

ضمّ كتاب سيبويه بين دفّتيه أكثرَ من علمٍ من علوم العربية فكان فيه إلى جانب النحو والصرف مادة لغوية غزيرة ، فيما نقله إلينا من المفردات والعبارات فقد جمع سيبويه معظم النحو والصرف حتى أنه لم يجدّ بعده إلا موضع المصطلحات في موضوعها النهائي أو استدراك بناء من أبنية العرب .

ويكاد الجزء الأول من الكتاب يكون للنحو وإن تأثرت فيه بعض مسائل الصرف ، كجمع كلمة أو اشتقاقها أو النسب إليها .

أمّا الجزء الثاني ، فيبدأ بباب ما ينصرف وما لا ينصرف وهي مواضيع نحوية حتى يصل إلى باب الإضافة حيث تبتدأ الموضوعات الصرفية .

والواضح أن مباحث الأبنية الصرفية في كتاب سيبويه تشكل مرجعاً مهماً من مراجع اللغة ومفرداتها وغريب ألفاظها .

والباحث في كتاب سيبويه يجد مباحث في علم اللغة إلى جانب مباحث النحو والصرف ، فيجد مثلاً التذكير والتأنيث وأخرى في الأصوات . وإلى جانب ذلك نجد مباحثَ في لهجات العرب ولغاتها

المختلفة وما فيها من ظواهر كلامية مثل الإمالة والإدغام ، والقلب ونحوها من الظواهر التي تختص بها قبائل من العرب دون أخرى .

❖ رسالة كتاب سيبويه :

أطلق دارسو كتاب سيبويه وشرّاحه على ما يمكن أن يُسمى بالتمهيد الذي وضعه سيبويه مدخلاً لمباحث الكتاب النحويّة والصرفية اسم ((رسالة كتاب سيبويه)) .

ويتضمن حديثاً عن أقسام الكلم وحركات الإعراب والبناء مما أسماه مجاري أواخر الكلم ، وتكلم عن المسند والمسند إليه ، وما يقع بين الكلمات من اختلاف في اللفظ واتفاق في المعنى ، وما يعتري اللفظ من أسباب الذكر والحذف وما يلحق بالمعنى من حسن أو قبح ، ويختتم موضوعاته بباب الضرائر الشعرية ، والذي أطلق عليه اسم ((باب ما يحتمل الشعر)) .

ويستغرق هذا التمهيد ثلاث عشرة صفحة من الجزء الأول من الكتاب حيث يبدأ بعدها الحديث عن باب الفاعل وهو أول الموضوعات النحوية . وهذه المقدمة التي عدّها سيبويه فاتحة الكتاب ظلت متبعة حتى عصرنا الحاضر ، أو زمن ابن مالك الذي استقر في زمانه التأليف النحوي .

❖ منهج سيبويه في كتابه [١٣]:

إنَّ للكتاب منهجاً واضحاً بناه سيبويه وحدّده ورتَّبه ونظّم العلوم التي ضمها هذا الكتاب ، وإن خلوّ الكتاب من مقدمةٍ يشرح فيها سبب التأليف أو زمانه أو مصادره أو سبب اتباعه هذا المنهج في التأليف ، ومن خاتمة يبين فيها نتائج بحثه ، ، لا يعني خلوّه من منهج منظم جارٍ على أسلوب تطبيقي .

فقد رتّب سيبويه أبواب كتابه وبوّبها وقدّم فيه منها ما رآه يستحق التقديم من الأبواب والبحوث التي تُعدّ مدخلاً لأبواب الكتاب الأخرى .

والذي يتضح للناظر في كتاب سيبويه ، أنّه عدّ العلوم العربية البارزة ثلاثة : هي النحو ، والصرف ، والدراسات الصوتية . وعلى هذا الأساس رتّب كتابه ، فجاء الجزء الأول من طبعة بولاق وأول الجزء الثاني خاصاً بموضوعات النحو المستقلة ، وجاءت بعدها موضوعات هي مما يدرس دراسة نحوية وصرفية ، وهي أبواب النسب والتصغير وجمع التكسير ، ووضع بعدها ما يتعلق بالصرف من أبنية الأفعال وما يشتق منها ومصادرها وختم الكتاب بأبواب في الدراسة الصوتية من الإبدال والإعلال والإمالة وكان هذا الترتيب فيما نرى واضحاً منطقياً دالاً على عقلية سيبويه التنظيمية ، وعلى إحساسه بتميّز البحوث النحوية عن الصرفية ، واللغوية .

فكتاب سيبويه ثمرة ناضجة للدراسات النحوية التي سبقته ، فهو في مادته وفي أسلوبه ومنهجه لا يمكن أن ينسلخ عمّا بذل قبله من جهود عند النحاة وبخاصة شيوخه الذين أخذ عنهم .

ويبرز من بين هؤلاء شيخه الخليل بن أحمد الفراهيدي– وهو – كما هو معروف ، أبلغ القوم أثراً في سيبويه وفي كتابه .

والحديث عن منهج سيبويه في كتابه لا بدّ أن يقودنا أولاً إلى الحديث عن منهج الخليل ، لأن سيبويه إنّما أخذ عنه وتأثر به ولازمه حتى آخر أيامه .

ومنهج الخليل في النحو – كما يحدثنا الدكتور المخزومي – يقوم على الاستقراء والتتبع ، وهو منهج يتلاءم وطبيعة الدراسات اللغوية ، التي تعتمد أكثر ما تعتمد على الاستقراء .

والخليل كان يتذوّق الكلمات ومواقعها في العبارات ليدرك ما تدلّ عليه من معانٍ إعرابية هي الصور النفسية التي مثّلت في نفس العربي فأراد التعبير عنها ، وكان الخليل يتذوقً الكلمات ليفقه ما في هذه الكلمات من أسرار . وكان يقلّب الجمل على وجوهها التي يحتمل أن يكون العرب قصدوا إليها ، ليقف على المعاني المختلفة التي تدل عليها هذه الوجوه [١٤] .

وقد اصطنع الخليل التجربة أداةً لتقعيد النحو والوصول إلى الأحكام عامة ، لأن عقليته تعنى بالنظر الكلي العام . فكان لا ينتهي من قاعدة إلا ليواجه قاعدة أخرى ولا يفرغ من أصل إلا ليبحث في أصلٍ آخرَ [١٥].

فكان يحاول أن يُخضعَ الأشتات والجزئيات للأحكام العامة لكي تُصبح الدراسة اللغويةُ أشبه ما تكون بالدراسة العلمية حتى يتمكنَ الدارس من الإحاطة بالمسائل وتكون هذه الأصول أمامه ، بمنزلة الأعلام تهديه في طريقه لدراسة هذه الموضوعات [١٦].

وسيبويه – كما يقرر الأستاذ النجدي – كان لا يتحرر من منهج الخليل ، فهو يدرس أساليب الكلام في الأمثلة والنصوص ليكشف عن الرأي فيها صحة وخطأً أو حُسناً وقُبحاً أو كثرةً وقلة . وهو لا يلتزم تعريف باب من أبواب النحو ولا يلتزم مصطلحاً بعينه يردّده كلّما دعت المناسبة للحديث عن موضوعه [١٧].

كما أنّه لا يلتزم بتفريغ الفروع أو التوسع في اشتراط الشروط لكل مسألة على نحو ما يفعل النحاة المتأخرون ، بل يعرض للموضوعات النحوية بكامل عناصرها محللاً وموضحاً غير مكترث بصياغة قواعدها أو وضع ضوابطها على نحو ما يصنع غيره من النحاة المتأخرين . وسبيله إلى ذلك أن يتّجه إلى فكرة الباب كما يتمثلها ويستحضرها في ذهنه ويضع المعالم لها ويسوق أمثلتها وشواهدها مجموعة مصنّفة محللاً التراكيب مؤولاً الألفاظ متنبهاً لما هو محذوف منها أو مقدّر [١٨].

ويلتزم سيبويه – كما يقول بعض الباحثين – في معالجة جزئيات الفصول والأبواب منهجاً تتمثل فيه ظاهرتان :

الظاهرة الأولى : تصنيف القوالب اللغوية المتشابهة أو التي تجمعها خاصية واحدة ، وهنا يبدو الفرق بينه وبين غيره من النحاة فهو مُكثرٌ من النماذج اللغوية مبيناً طرق الاستعمال العربي ووجه إعرابها ورأي النحاة فيها ، وهو نمط يتبعه في جملة أبواب الكتاب بينما يوجّه النحاة المتأخرون همّهم إلى صياغة القاعدة النحوية أولاً ثم يأتون بالأمثلة والنماذج بموجب الفروع والأقسام التي يرسمونها في الباب الواحد .

والظاهرة الثانية : تتمثل في الطريقة الاستنتاجية التي يتّبعها سيبويه لكي يستخلص القاعدة بعد الاستقراء الواسع للآثار اللغوية التي تعكس الظاهرة وراء الباب .

وقد يلجأ سيبويه إلى عرض النماذج وتحليلها مهيئاً للقارئ أو الدارس وسائل الاستنتاج وتاركاً له الفرصة لكي يقوم بنفسه بالعملية الاستنتاجية الأخيرة [١٩] .

ولكي تتضح المبادئ التي تقررت في منهج سيبويه في عرض المادة النحوية ، لا بدّ أن نعرض نموذجاً من تحليلاته للأساليب العربية والتراكيب اللغوية .

قال سيبويه : في باب ما جرى من الأسماء التي تؤخذ من الفعل مجرى الأسماء التي أخذت من الفعل : ((وذلك قولك : أ تَميميّاً مرّة وقيسيّاً أخرى ؟ كأنّك قلت : أتحوّلُ تميمياً مرة وقيسياً أخرى ، فأنت في هذه الحال تعمل في تثبيت هذا له وهو عندك في تلك الحال في تلوّن وتنقّل وليس يسأله مسترشداً عن أمرٍ هو جاهلٌ به ليفهّمه إيّاه ويُخبره عنه ولكنّه وبَّخه بذلك)) [٢٠] .

فهذا الأسلوب في تحليل النكرة أو ظاهرة النصب في هذه الأسماء هو أسلوب أقرب إلى عمل أهل المعاني منه إلى عمل أهل النحو . فليس فيه تقرير قاعدة دون أن يسبقها تحليل وليس فيه تعليل فلسفي عقلي لظواهر اللغة ، الأمر الذي نفتقده عند متأخري النحاة ممن طغى على كتاباتهم التفلسف والولع بالتقسيمات والإيغال باشتراط الشروط وتقرير القواعد النظرية .

قال سيبويه : ((وقال جريرٌ : {الوافر}

أعبْداً حلّ في شُعَبى غريباً ألؤماً لا أبا لك واغترابا

يقول : أ تلؤمُ لُؤماً وأ تغتربُ اغتراباً وحذَفَ الفعل في هذا الباب لأنهم جعلوه بدلاً من اللفظ بالفعل ، وهو كثير في كلام العرب)) [٢١] .

ثم بعد كلام بعد ذلك طويل قال سيبويه يبين إعراب المصدر ووجه النصب فيه فيقول : ((وأمّا قول الشاعر :

أعبْداً حلّ في شُعَبى غريباً

فيكون على وجهين : على النداء ، وعلى أنّه رآه في حال افتخار واجتراء ، فقال : أ عبداً !! أي : أ تفْخَرُ عبداً ؟ كما قال : أ تميمياً مرةً)) [٢٢] .

فهذا التحليل للعبارات والتراكيب اللغوية والإطالة فيه بتقليب التعابير على مختلف الوجوه ، تشبيهاً تارةً وتفسيراً تارةً أخرى هو السمة المميزة لمنهج سيبويه عن مناهج المتأخرين .

ولايَخفى أنّ هذا الأسلوب لدى سيبويه يعكس في واقعه الصورة الأولى التي ابتدأت بها الدراسات النحوية والطريقة التي كان يسلكها النحاة الأوائل لتقرير الأحكام النحوية وتوجيه ظواهر الإعراب مستخلصين ذلك من تحليل النصوص والتعابير التي سمعوها عن الإعراب ، أو قاسوها على استعمالاتهم . وهي كما ترى صورة يمتزج فيها المبحث النحوي بالمبحث البياني . الأمر الذي لم يبق على حاله عند المتأخرين بل اتجه نحو الفصل بين المباحث النحوية والمباحث البيانية فخسر الدرس النحوي بذلك كثيراً من طرافته وكثيراً من جماله ولذّته [٢٣] .

❖ التعليل عند سيبويه :

إنّ من تمام الحديث عن منهج سيبويه هو الحديث عن ظاهرة التعليل عنده ، فسيبويه يعنى في كتابه عناية شديدة بتعليل الظواهر الإعرابية والصرفية وعامة الظواهر اللغوية .

وهو في تعليلاته كثيراً ما يعتمد على ما ينقله عن شيوخهِ مثل الخليل ويونس ممن كان لهم اهتمام في هذا الجانب من جوانب الدراسة النحوية واللغوية .

إنّ نشأة النحو رافقتها نشأة العلل التي كان يفسر بها النحاة الظواهر اللغوية والنحوية ويردّون بها على تساؤلات الدارسين للغة ونصوصها .

واتصفت هذه التعليلات في مبدأ أمرها بالابتعاد عن التفلسف والاقتراب من روح اللغة وحسّها الذي ينفر من القبح والثقل والتنافر اللفظي . كما كانت توافق الإعراب للمعنى ، ولذا وردت بأسلوب أقرب إلى الجزم والتقريرية منه إلى الفرض والتخيُّل والجدل [٢٤].

لقد كانت تعليلات الخليل تسيل سيلاً كما يقول الدكتور شوقي ضيف[٢٥] من غير تعليق ولا اضطراب وتابعه على ذلك تلميذه سيبويه ولهذا نجد الكتاب مليئاً بالتعليلات المتتابعة الأصيلة بحيث لا تمرّ مسألة إلا ويعلل لها .

والعلل التي ذكرها النحاة كثيرة ومتعددة بحيث زادت على أربعة وعشرين نوعاً . وقد وردت هذه الأنواع في الكتاب إلا أنّ أكثر العلل دوراناً في الكتاب هي :

١ـ علة كثرة الاستعمال : وقد علل بهذه العلة كثيراً من المسائل منها :

((حينئذ الآن)) إنما تريد : ((واسمع الآن)) و ((ما أغفلَهُ عنك شيئاً)) [٢٦] أي : ((دعِ الشكَّ عنك)) . فحذف هذا لكثرة استعمالهم .

٢ـ ويقابل علة كثرة الاستعمال علةٌ أخرى هي ((علّة قلة الاستعمال في الكلام)) [٢٧] .

٣ـ ومنها علة عدم الاستعمال أو (عدم الوجود) .

قال سيبويه في باب ((الإضمار في (ليس) و(كان) كالإضمار في (إنَّ) ومثل ذلك في الإضمار قول العُجيز : { الطويل }

إذا مِتُّ كان الناسُ صنفان شامتٌ وآخرُ مُثنٍ بالذي كنتُ أَصنعُ

أضمر فيها))[٢٨] . وقال هشام أخو ذي الرمّة : { البسيط }

هي الشفاء لدائي لو ظفِرتُ بها وليس منها شفاء الداء مبذولُ[٢٩]

واستعمل سيبويه العلل التعليمية والعلل القياسية والعلل المنطقية الجدلية ، والمتتبع لكتابه يجده زاخراً بالعلل .

وقد ذكر المتأخرون من النحاة علاً استعملها سيبويه في تعليل مسائل النحو والصرف واللغة ، سنذكرها ونشير إلى أهم المواضع التي استعملها فيها ولا نطيل بالتمثيل لها ، لأنها شبيهة بما مرَّ في العلل المتقدمة : وأهم هذه العلل :

علة مقابلة[٣٠] ، وعلة تخصيص[٣١] ، وعلة عدم اضطرار[٣٢] ، وعلة ثبات[٣٣] ، وعلة تفسير وعدم ثبات[٣٤] ، وعلة إهمال[٣٥] ، وعلة عدم وجود النظير[٣٦] ، وعلة لزوم[٣٧] ، وعلة استيحاش[٣٨] ، وعلة تحول[٣٩] ، وعلة ضعف[٤٠] ، وسأُشير إلى الباقيات في مواضعها من الكتاب[٤١] .

❖ أسلوبه :

لكلّ مؤلف أسلوبه في التأليف وطريقته في العرض والتبويب ومناقشة المسائل المطروحة ، فمنهم من تكون عباراته معقدة تصعب على القرّاء والدارسين ، ومنهم من يكون أسلوبه سهلاً سلساً يجعل القارئ متعلقاً بالكتاب .

ولمّا كان النحو من العلوم التي يحتاجها من يقرأ العربية أو يؤلف فيها فقد احتاج إلى العرض السهل الخالي من التعقيد والتعليل والإطالة لذلك نرى سيبويه – على الرغم من أنّ كتابه أول كتاب وصل إلينا في النحو – يحاول أن ينهج المنهج الطبيعي القريب إلى الإفهام والإدراك في زمنه .

نجد أسلوب سيبويه يختلف من باب إلى آخر تبعاً للموضوع نفسه . وبسهولته أو صعوبته ، لأنه عمل كتابه على لغة العرب وخطبها وبلاغتها ، لذلك كانت ألفاظه تحتاج إلى شرح وإيضاح لأنه أُلّفَ في زمان كان أهله يألفون مثل هذه الألفاظ فاختصر على مذاهبهم .

اتّبعَ سيبويه في كتابه أسلوب العرض السهل السريع القائم على الإيجاز في التعبير والإكثار من الأمثلة ، فهو يعرض القاعدة ويمثل لها بأمثلة من كلام العرب .

فهو يحاول أن يوضح أمثلته ويقربها إلى الأذهان بتشبيه عبارة بأخرى أقرب منها إلى الأذهان ، يفعل هذا في الأبواب السهلة الواضحة . ويعسر أحياناً فهم عبارة سيبويه لغموضها واستغلاقها.

وسيبويه لم يسر في كتابه على مثال سابق ، ولم يكن عمله في الكتاب مجرد الجمع ، بل كان له فضل الجمع والتبويب والمناقشة والترجيح والتعليل .

❖ **شواهد الكتاب :**

يمكننا تقسيم شواهد الكتاب إلى أربعة أقسام :

- الأول : القرآن الكريم وقراءاته .
- الثاني : الحديث النبوي الشريف .
- الثالث : الشعر والرجز .
- الرابع : كلام العرب المنثور .

أمّا القرآن الكريم : فقد استشهد سيبويه في كتابه بأكثر من (٤٠٠) أربعمائة آية من كتاب الله العزيز [٤٢]. استشهد بها سيبويه لتوضيح القواعد وتقريرها . وربما اكتفى بالتمثيل للقاعدة بآية أو آيتين ، ثم يعقب بعدها قائلاً : ((وهذا النحو في القرآن)) أو ((وهذا الضرب كثير في القرآن))[٤٣] .

كان سيبويه يعتبر القرآن الكريم الشاهد الأول في كلّ موضوع من الموضوعات التي بحثها في كتابه ، فهو أعلى مراتب الكلام العربي وأقوى الأساليب العربية ، لذا عدّه الأساس الأول في المسموع [٤٤].

وأمّا القراءات ، فلم يَعِب سيبويه قارئاً ولم يُخطِّئ قراءة ، بل كان يذكرها ليلتمس لها وجهاً من العربية وليقوّي بها ما ورد عن العرب ، وإذا كانت القراءة مفردة لا يردّها ولا يصفها بالشذوذ أو الخطأ ، ولا يصف القارئ بالخطأ أو يطعن فيه ، إنما يحاول تخريجها على إحدى لغات العرب ، وهو الذي يعتبر اللغات الواردة عن العرب فصيحة صحيحة،وليس المتكلم بها مخطئاً،فكيف يُخطئ القرّاء وهم أئمة المسلمين وأعلامهم وما قرأوا به لا يُخالف لأنّه سنَّة متّبعة [٤٥].

من هنا ترى أنّ سيبويه قد أخذ بالقراءات جميعها متواترها ومشهورها ، أمّا القراءات الضعيفة فقد احتجّ بما ورد منها لكنّه لم يَقسْ عليها ، إنما اعتبرها مما ضعف في اللغات أو قلّ .

أمّا الحديث النبوي الشريف : فليس في كتاب سيبويه منه سوى ستة أحاديثَ[٤٦] ولم يذكر سيبويه أنّها من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : بل يوردها ضمن شواهد الكتاب ويقول قبلها : ((أمّا قولهم)) أو ((من ذلك)) أو ((مثل ذلك)) وغير ذلك من العبارات .

ويبدو أنّ سيبويه مثل غيره من النحاة الأوائل لم يحتج بالحديث النبوي في قواعد النحو والصرف ، لأنه يُروى بالمعنى . أمّا ما ذكر من أحاديث فهو من باب التمثيل والاستئناس .

أمّا الشعر والرجز : فقد استشهد سيبويه في كتابه بأكثر من (١٠٥٠) ألف وخمسين بيتاً من الشعر ، وربّما تزيد قليلاً أو تنقص حسب نسخ الكتاب .

أمّا كلام العرب المأثور : فاستشهد سيبويه في كتابه بمئات من العبارات المروية عن العرب ، والأمثال ، والمفردات وبخاصة في أبواب الصرف .

أمّا المفردات أو الصيغ التي استعملها سيبويه في الأبواب الصرفية [٤٧] فهي كثيرة جداً تبلغ الآلاف ، وكل ذلك مما نقله عن شيوخه أو سمعه من العرب الفصحاء .

. الهوامش .

(١) وفيات الأعيان ٣/ ١٣٣ .
(٢) انظر : الشاهد وأصول النحو : ١١ .
(٣) انضر : مقدمة شرح أبيات سيبويه للسيرافي ١/ ٦ .
(٤) وفيات الأعيان ٣/ ١٣٣ .
(٥) مفتاح العلوم : ١٣٠ .
(٦) وفيلت الأعيان ٢/ ١٦ .
(٧) انظر : أخبار النحويين : ٢٩،٥٠ ، والفهرست : ٧٧ ، وكشف الظنون ٢/ ١٤٢٧ .
(٨) أخبار النحويين : ٥٠ ، والفهرست : ٧٧ .
(٩) انظر : مراتب النحويين : ٨٧-٨٨ ، وطبقات النحويين : ٧٣ ، وخزانة الأدب ١/ ١٧٩ .
(١٠) ضحى الإسلام ٢/ ١٧٩ .
(١١) تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ٢/ ١٣٤-١٣٥ .
(١٢) انظر : سيبويه ، هوامش وملاحظات حول سيرته وكتابه : ٦٥ .
(١٣) انظر : شواهد الشعر في كتاب سيبويه : ٤٦ ، والمدارس النحوية لخديجة الحديثي : ١٠٤ .
(١٤) الخليل بن أحمد الفراهيدي : ٢٢٥ .
(١٥) المصدر نفسه : ٢٢٥ .
(١٦) المصدر نفسه : ٢٢٥ .
(١٧) انظر : النكت في تفسير كتاب سيبويه .
(١٨) سيبويه إمام النحاة : ١٥٨ .
(١٩) تطور الدرس النحوي ، د. حسن عون : ٣٩ .
(٢٠) الكتاب ١/ ١٧٢ .
(٢١) المصدر نفسه ١/ ١٧٠ .
(٢٢) المصدر نفسه ١/ ١٧٣ .

(٢٣) عرض إبراهيم مصطفى في الفصلين الأولين من كتابه " إحياء النحو " إلى كثير مما يتصل بهذا الموضوع . انظر : إحياء
النحو : ١٣ وما بعدها .
(٢٤) النحو العربي ، د. مازن المبارك : ٥٧ .
(٢٥) المدارس النحوية : ٥١ .
(٢٦) الكتاب ١/ ٢٧٩ .
(٢٧) انظر التمثيل عليها في الكتاب ١/ ٢٠٥
(٢٨) الكتاب ١/ ٣٦ .
(٢٩) انظر النواسخ في كتاب سيبويه : ٤٠-٤١ .
(٣٠) الكتاب ١/ ٤٢٣ ، ٢٦٨ .
(٣١) المصدر نفسه ١/ ٢٩٧ ، ٣٢٦ .
(٣٢) المصدر نفسه ٢/ ٨٨ ، ١١١ .
(٣٣) المصدر نفسه ١/ ١٦٨ ، و ٢/ ٣٨٨ .
(٣٤) المصدر نفسه ٢/ ٣٧٣ ، ٣٧٤ .
(٣٥) المصدر نفسه ١/ ٣٦٣ ، ٤٥٩ ، و ٢/ ٢٠٤ .
(٣٦) المصدر نفسه ٢/ ٧٨ ، ٤٠٤ .
(٣٧) المصدر نفسه ٢/ ٨ ، ٤٠٢ .
(٣٨) المصدر نفسه ١/ ٢٧٣-٢٧٧ ، و ٢/ ١٩٣ .
(٣٩) المصدر نفسه ١/ ٣١٣ ، ٢/ ٧٩ .
(٤٠) المصدر نفسه ١/ ٢٣٧ ، ٤٥٢ ، و ٢/ ٢٧٨ ، ٣٦١ ، ٣٦٧ .
(٤١) المصدر نفسه ١/ ٢٣٧ ، ٤٥٢ ، و ٢/ ٣٧٨ ، ٢٦١ ، ٢٦٩ ، ٣٦٧ ، ١/٤٣٩ ، ٤٤٠ ، ٢/ ٣٦٣ ، ٤٤٦ ، ٤٤٩ ، ١٦٤ ، ١/ ١٦ ، ٦ ، ٣٠٤ ، ٣٠٠ ، ١/ ٣٦٢ ، ٣٣٦ ، ٣١٦ ، ٣٦٢ ، ٢/ ١٢١ ، ١١٧ ، ١٢٥ ، ١٤ ، ١٣ ، ٤٣ ، ٣٠٢ ، ٥ ، ٢٤٥ ، ٢٩٦ ، ٣٨٨ ، ٢٥٥ ، ٣٨٥ ، ٤١٥ ، ٤٣٦ . وغيرها كثير كثير .
(٤٢) انظر : فهرس شواهد سيبويه ، أحمد راتب النفاخ .
(٤٣) انظر : الكتاب ١/ ٢٣٥ ، ١/ ٣٦٦ ، ١/ ٤٧٩ .
(٤٤) انظر : الشاهد وأصول النحو : ١٣٧ .
(٤٥) انظر : الكتاب ١/ ٧٤ ، وسيبويه حياته وكتابه : ١٥١ ، والشاهد وأصول النحو : ١٣٩ ، والتوسع في كتاب سيبويه : ٢٠١
(٤٦) انظر : كتاب سيبويه وشروحه ، د. خديجة الحديثي : ١١٦ .
(٤٧) انظر : كتاب أبنية الصرف ، د. خديجة الحديثي . فهو رسالتها للماجستير وجمعت فيه أبنية الصرف في كتاب سيبويه واستدركت عليه .

. روافد البحث .

١. أبنية الصرف في كتاب سيبويه . د. خديجة الحديثي ، مكتبة النهضة ط١/ بغداد ١٩٦٥م .
٢. إحياء النحو ، للأستاذ إبراهيم مصطفى ، مطبعة لجنة التأليف والنشر ١٩٣٧م .
٣ـ أخبار النحويين البصريين ، لأبي سعيد الحسن بن عبد الله السيرافي ،تحقيق : طه محمد الزيني ،
ومحمد عبد المنعم الخفاجي ط١ ، ١٩٥٥م .
٤. أعلام النحو العربي ، د. مهدي المخزومي ، بغداد ، دار الجاحظ ، ١٩٨٠م (الموسوعة الصغيرة ٦٠) .

٥. إنباه الرواة على أنباه النحاة ، جمال الدين علي بن يوسف القفطي ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، مطبعة دار الكتب المصرية – القاهرة ١٩٥٠م .
٦. الانتصار لسيبويه على المبرّد ، لأبي العباس أحمد بن محمد بن ولّاد النحوي (ت ٣٣٢هـ) تحقيق : د. زهير عبد المحسن سلطان ، مؤسسة الرسالة – بيروت ط١ ١٩٩٦م .
٧. تاريخ الأدب العربي ، كارل بروكلمان ، ترجمة : د. عبد الحليم النجار ، مطبعة دار المعارف – القاهرة ١٩٦١م .
٨. تاريخ بغداد ، لأبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ) مطبعة السعادة – مصر ١٩٣١م .
٩. التوابع في كتاب سيبويه ، د. عدنان محمد سلمان ، مطابع دار الحكمة ١٩٩١م .
١٠. التوسع في كتاب سيبويه ، د. عادل هادي حمادي العبيدي ، مكتبة الثقافة الدينية – القاهرة ط١ / ٢٠٠٤م .
١١. تيسير النحو التعليمي قديماً وحديثاً ، د. شوقي ضيف ، دار المعارف – مصر .
١٢. خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ، عبد القادر بن عمر البغدادي (١٠٩٣ هـ) تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي – القاهرة ، مطبعة المدني (د.ت) .
١٣. سيبويه إمام النحاة في آثار الدارسين ، كوركيس عواد ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ١٩٧٨م .
١٤. سيبويه هوامش وملاحظات حول سيرته وكتابه ، د. صاحب أبو جناح – ١٩٧٤م .
١٥. الشاهد وأصول النحو في كتاب سيبويه ، د. خديجة الحديثي مطبوعات جامعة الكويت ١٩٧٤م .
١٦. شرح أبيات سيبويه ، لابن السيرافي (ت ٣٨٥هـ) تحقيق د. محمد علي سلطاني ، مطبعة الحجاز _ بدمشق ١٩٧٦م .
١٧. شرح السيرافي ((مخطوط)) مصورة عن نسخة دار الكتب المصرية بالقاهرة رقم : (٥٢٨ نحو تيمور) .
١٨. شرح عيون كتاب سيبويه ، لأبي نصر هارون بن موسى القرطبي (ت ٤٠١هـ) تحقيق : د. عبد ربه عبد اللطيف عبد ربه . مطبعة حسان – القاهرة ط١ ١٩٨٤م .
١٩. شواهد الشعر في كتاب سيبويه ، د. خالد عبد الكريم جمعة ت مكتبة دار العروبة بالكويت ، ط١ – ١٩٨٠م .
٢٠. الفهرست ، لأبي الفرج محمد بن إسحاق المعروف بالورّاق – ابن النديم (ت ٣٨٠هـ) تحقيق : رضا تجدد – طهران ١٩٧١م .
٢١. فهرس شواهد سيبويه ، أحمد راتب النفّاخ ، دار الإرث ودار الأمانة ط١ ، ١٩٧٠م .
٢٢. فوائت كتاب سيبويه من أبنية كلام العرب ، لأبي سعيد السيرافي ، تحقيق : د. محمد عبد المطلب البكّاء . دار الشؤون الثقافية ٢٠٠٠م .
٢٣. كتاب سيبويه ، طبعة بولاق ١٣١٦هـ – ١٩٢١م .

٢٤. كتاب سيبويه ، طبعة هارون عالم الكتب – بيروت ومطابع دار العلم – القاهرة ١٩٧٥م .
٢٥. كتاب سيبويه وشروحه ، د. خديجة الحديثي ، مطابع دار التضامن – بغداد ط١ ١٩٦٧م .
٢٦. المدارس النحوية د. خديجة الحديثي ، مطبعة جامعة بغداد ، ط٢ ١٩٩٠م .
٢٧. المصطلح النحوي ، نشأته وتطوره حتى أواخر القرن الثالث الهجري ، عوض حمد القوزي جامعة الرياض ط١ – ١٩٨١م .
٢٨. مع المصادر في اللغة والأدب ، د. إبراهيم السامرائي ، منشورات وزارة الثقافة والإعلام ١٩٨١م .
٢٩. المقابسات ، لأبي حيان التوحيدي ، تحقيق حسن السندوبي ط١ مصر – ١٩٢٩م .
٣٠. مكانة الخليل بن أحمد في النحو العربي ، د. جعفر نايف عباينة ، دار الفكر – عمان ، ط١ ١٩٨٤م .
٣١. منهج أبي سعيد السيرافي في شرح كتاب سيبويه ، د. محمد عبد المطلب البكاء ، دار الشؤون الثقافية – بغداد ١٩٩٠م .
٣٢. نزهة الألباء في طبقات الأدباء ، لأبي البركات بن الأنباري (ت ٥٧٧هـ) تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار النهضة – مصر ١٩٦٧م .
٣٣. نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة ، الشيخ محمد الطنطاوي ، دار المعارف بمصر ط٥ ١٩٧٣م .
٣٤. النكت في تفسير كتاب سيبويه ، للأعلم الشنخري (ت ٤٧٦هـ) تحقيق : زهير عبد المحسن سلطان . منشورات معهد المخطوطات العربية – الكويت ، ط١ ، ١٩٨٧م .
٣٥. النواسخ في كتب سيبويه ، د. حسام سعيد النعيمي ، دار الرسالة – بغداد ١٩٧٧م .
٣٦. وفيات الأعيان ، ابن خلكان ، شمس الدين أحمد بن محمد ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، مكتبة النهضة – مصر ١٩٤٨م .